من الخزانة الشرقية

بقلم هيب زيات

دفائن الخزائن

ديوان محمد بن نصر القيسراني

الغربات

في دار الكتب المصرية مجلد صغير لا يتجاوز ٤١ ورقة في كل صفحة منها ١١ سطرًا بخط واضح جميل تتضاعف به لذة القراءة لولا ما ينغصها احياناً من اختزام الأرضة بعض الالفاظ ولا سيما في اسافل الصفحات وانتشاز سلك النظم بضياعها وفي ما يلي الصفحة البيتين نقص يسير لا يدرى مقداره بالتحرير لعدم رقم الديوان قبل التجليد ومما يزيد في قيمته ما ورد في آخره : « هذا ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره » فلدينا اذن صفوة شعر القيسراني كما كان يراه هو بنظره الثاقب وصاحب البيت ادرى بالذي فيه ولا شيء في الختام يدل على اسم كاتبه او ناسخه وقد ذكر ابن خلكان انه ظفر بديوانه في حلب ونقل منه اشياء حسنة رائقة (وفيات الاعيان ١ : ٣٩١ طبعة ١٢٩٩) وممن نقل عنه ايضاً ياقوت في معجم الادباء (٧ : ١١٢ — ١٢١) وعماد الدين الاصبهاني الكاتب (خريدة القصر رقم ٣٣٢٩ من خزانة باريس).

واول المجلد في الدار (رقم ١١٨٤ ادب):

« قال محمد بن نصر بن صغير القيسراني يمدح الوزير الاجل جلال الدين صدر الاسلام ابا الرضى محمد بن صدقة انشده اياها بالجزيرة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة :

في طاعة الحب ما انفقت من عمري ... وفي سبيل الهوى ما شاب من شعري

(٣٥ بيتاً ص ٢ — ٧) وتليها امداح اخر لبعض الوزراء والقضاة والكبراء. استغرقت سائر الصفحات ٨ الى ٤٨ لا تنقل منها شيئاً لضيق المقام بها هنا وتليها اوصاف واغزال قليلة تبلغ ٤٥ بيتاً ختمها بقوله في مجلسه ارتجالاً وقد سُئل ان يعمل على وزن ابن هانئ المغربي : « الصبر حيث الكلة السيراء » فقال:

أرأيت ما فعلت بنا الصهباء من حيث تسبي العقل وهي سباء

(١٩ بيتاً ص ٥٣ — ٥٥) وتأتي بعدها مقاطيع عملها عند قفوله من العراق الى الشام يتشوق فيها السكن والوطن وذلك سنة سبع وعشرين وخمسمائة نختار منها قوله في الانبار وفيه شاهد على انه كان مقيماً في دمشق وفيها توفي سنة ٥٤٨ ودفن بمقبرة باب الفراديس :

أقمت بالانبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
اشتاق اهلي بدمشق وفي بغداد حظ القلب والعين
ففي لغاني ذا فراق لذا قل لي متى اخلو من البين (ص ٥٥)

وقد اكثر في هذه المقاطيع من الحنين الى الشام والتحسر على فراق بغداد فقال حين مرّ بجوراح[1] وسُوَى :

احب الشآم واهوى الرا قيَ فخلفي هوى وامامي هوى
فيا مشر الشام اشكو النوا يَ اليكم فهل عندكم من دوا

وقال ايضاً حين مرّ بديار بني عدي :

مررنا في ديار بني عدي يجاذب لوعتي شرق وغرب
يقيمني بارض الشام حب ويعطفني على بغداد حب
غرام طارف وهوى تليد لكل صبابة في القلب شعب
ولا وأبيك ما مومّت الا سرى لهما خيال لا يغب
فكل هوى يطالبني بقلب وهل لي غير هذا القلب قلب (ص ٥٩)

وقال ايضاً لما نزل بالزواجر :

ولما نزلنا بالزواجر هاجني خيالان منها مُعرق وشآمي
فبتُ وهذا آخذ بشكيمتي اليه وهذا جاذب بزمامي
تجاذبني الاهواء شرقاً ومغرباً فقلبي ورائي تارة وامامي
وتسألني الحسناء عن طول غيبتي فقلت لها عمّ لديك بسام
تباعد عن ذات السوارين روحتي فلم يبقَ من لياه غير لمام
فها انا ان بغداد هاجت صبابتي بعثت الى دار السلام سلامي (ص٥٩—٦٠)

---

١) جوراح قاع في طريق اليمامة الى البصرة (معجم البلدان ٢ : ٧٢٦ طبعة اوربة) ذكره ابو فراس فقال :

لقد اخذ السُرى والليل منا فهل لك ان تريح بجوّ راح
(ديوانه طبعة الدكتور دهان ٢ : ٦١)

وسُوى اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة (معجم البلدان ٣ : ١٧٣)

ومن ذلك ايضاً :

أنت ظلم يفض المنام لبانة ... وسرت وقلبي عندكم غير سائر
اسائل اعلام الساوة عنكم ... فيخبرني عن بعدكم حجر الحري
فما رأيت الوجد ليس بنافعي ... زجرت فزادني عنكم الزواجر
وآنس مني لوعة القلب ماحبي ... فأسبل ماء الدمع بين المحاجر (ص ٦٠)

وهذه الابيات تدل على انه كان كثير التنقل لا تستقر به حال من القلق وانه وان كان عكاوي المولد حلبي المنشأ والتأدب بغدادي الهوى والمقام ظل دمشقي الدار الى يوم وفاته وكان قد عرضت له حاجة في انطاكية سنة ١١٥٥/٥٤٠ فدخلها وطاف بسككها واحيائها وغشي بيوت لهوها وحاناتها وجالس قيانها وطرب لسماع غنائهن العربي وطاف الكنائس ايضاً وشاهد الراهبات فيها والنساء الصليبيات والروميات ووصف كلًا منهن ابدع وصف واعذبه في مقطعات وقصائد له دعاها :

الغربيات

وهذا نص ما كتبه في مختاراته منها في مجلده بالحرف وقد روينا بعضاً منها في مقالتنا السابقة «النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين» (المشرق ١٩١٩ ، ج ١ : ٢—٣) قال عند دخوله انطاكية ومرّه بالمواصم يذكر مواضع استحسنها وهي الغربيات (ص ٦١)

فمن ذلك :

كم بالكنائس من مبتلّة ... مثل المهاة يزينها . الخفر
من كل ساجدة لصورتها ... لو انصفت[1] سجدت لها الصور
قدّيسة في حبل عانتها . طول وفي زنارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها ... وردًا سقى اغصانه النظر
وتكللت عنها الجفون فلو ... حاورتها لاجابك الحور
وجلت مدارعها غدائرها ... فاراك ضفي ليلة قمر

ومن ذلك في المكشوف احد هياكل انطاكية :

كم لي بانطاكية من هوى ... لا انثني عنه بتعنيف
اذ لا أجيل العين الا على ... جيش من الآثار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية ... ما عندها البدر بموصوف (٦٣)

---

١) في خريدة القصر للعماد الكاتب : لو انصفت .

تجري ثنايا‌ها المآقي فما تلحظ طرفاً غير مطروف
فالعين خوف العين مصروفة عنها وما القلب بمصروف
هذا وكم وجه كشمس الضحى بالهيكل المكشوف مكشوف

ومن ذلك يصف انطاكية :

واحربا في الثغور من بلد يضحك حسناً كأنه ثغر
به قصور كأنها بيع ناطقة في خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهلة يبسم عن كل هالة ثغر
سوافر كلما شمرن بنا برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته بدر ولكن ليله شعر
فهو اذا ما الدلّ حاربه كان لتلك الضفائر الظفر
فيا عذولي فيهن دع كلفي وانظر الى الشمس هل لها ظُرَر (٦٣)
وكن معيني على ذوي خدع إن سالم القلب حارب النظر
سرتُ وخلفت في ديارهم قلباً تثبت انه بصر
ولم ازل اغبط الغمام بما للقرب حتى غبطت من أسروا

ومن ذلك :

أمنظمة الصليب وددت اني وديـن الله عندكم صليب
اذا اقبلت قبلني حبيب أسرّ به وعانقني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق يُرى الا التفجع والنحيب
هبيني صورة نُحنا عليها أجيب اذا دُعيت ولا تجيب
فلم يسمع باطرف من فتاة من الرهبان قوتها اديب
فلو قدّيسها ناجاه لفظي لامسى والصليب له نسيب (٦٤)

ومن ذلك :

ماذا باطراف الثغر من بارق على ثغر
وما بانطاكية من بشر يسبي البشر
وكم بها من فتنة تلقاك في الف قمر
من ظبية تأنسها ينظر من عينَي ذكر
واغيد تذكيره له من العين الحور
حتى اذا اجلتَ في تلك الديارات النظر
لم ترَ الا صوراً ساجدة الى صور
سبحان من ابدعها جند القضاء والقدر

ومن ذلك :

. . . ري في الثغور من الثغور وفي نحور العدو من النحور

... غنجة باسمة عفرد ... ففي افوافها ما في الصدور (٦٥)
على اردافها قضبان بان ... تميس فاتنات اللحظ صور
اذا انتصبت فاقطار الدراري ... وان مالت فافلاك البدور
فلو منطقتها بلى يديها ... حوت تلك الخصور على الخصور
سمين بين سكنّ بيوت شعر ... فامرزن المحاسن في الشعور
واسرجن النواظر في وجوه ... مترّهة الخدود عن الخدور
تريك الحسن غير مبرقعات ... الا ما في البراقع من غرور
فلو خادعت طرفك لم تعرّج ... به الا على أثر منير
قدعني من منازلة البوادي ... ففي شغل بسكّان القصور

ومن ذلك :

لقد فتنتني فرنجيّة ... نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصن ناعم ... وفي تاجها أثر مشرق (٦٦)
فان تكُ في عينها زرقة ... فان سنان القنا ازرق

ومن ذلك في كنيسة القسيان :

يا غزال الشعور بالقسيان ... انت من غال ذكره نسياني
اسأل الساعات عنك فطارا ... فاذا الليل جنّ جُنّ جناني
كيف يصغي الى اللوّ جماحي ... بعدما اطلق الغرام عناني
حبذا يوم باكرتنا الرنا ... نير ترينا القضبان في الكثبان
وعلى موقف الاساقف ظبي ... يفترس الأسد من بني الغرسان
غصن نابت من المرمر المنضو ... د في غير منبت الاغصان
اخرته النفوس عن ... الصد ... ر وحطّته في صدور الاماني
..... علىّ به الدهر ... فيا هل لذلك اليوم ثان (٦٧)
فاري من اراني الشمس شمّا ... سا على الارض تالي الاحقان

وقال في كنيسة السيدة وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى نطاكية خاصة دون الافرنج :

اني رأيت بانطاكية عجباً ... معرّس الفكر فيه غير مشترك
على اسم مريم فيها هيكل سلف ... سماؤه ذات انوار من الحبك
تحري اذا اذن الناقوس مركبة ... لعسكر الحسن فيها اي معترك
تاهيك من صورة تنمو لصورتها ... حسناً ومن ملك يومي الى ملك
لما رأيت بها الاقمار طالعة ... عجبت كيف اقاموا قبة الفلك (٦٨)

ومن ذلك فيها ايضاً :

أصاح متى عُجتَ بالسيدة ... قبلْ عن فؤادي ... فتبده

وقلبكَ حذّره من انْ يعا ... دَ فان عا للهوى مصيده
وجوه تباهي قناديلها ... بهجة نيراها الموقده
ترى كل مستضعف خصره ... اذا ما دعا طرفه الخده
وذات روادف عند المها ... م تحسبها انها متمده
وبدر من الشعر في غاسق ... يضاحك ابيضه اسوده
فيالي من ذلك الزبرقا ... نِ اذا زرفن الليل او جعده
عل حيال اذ ما رأيت ... اردده قلت ما اردده
سرّح عين كخيل الظبا ... تعالج غادته اغيده
به كل نشوانة لحظها ... يطرّق بين يدي عربده
صوارم قاطعة في الجفو ... نِ فهي مجرّدة مغمده (٦٩)
فها انا من في سبيل الغرا ... مِ اورده الحب ما اورده
فهل لدمٍ فات من طالب ... وهيهات اعجز يوم غده
وكيف يجازى بقتل النفو ... س من لم يعدّ اليها يده

ومن ذلك في بربارة وهي كنيسة للافرنج خاصة :

فديتكَ يا قسّ بربارةٍ ... وما بتّ تتلوه في الجندس
أجرني من الصور الناطقا ... تِ متى قمن حولك في مدرس
اذا همّ اقبلن وقت الصلا ... ة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق اوساطها ... وضاقت بما حلل السندس
وأجلسها ثقل ارداقها ... فيا لي من ذلك المجلس
فلولا التحرّج في ملتي ... طلعت عليهن في برنس (٧٠)
وقمت ألحّن قدامهنّ ... م غير بليد ولا اخرس
ولم تكُ فرساخا في الطما ... نِ باشجع مني ولا افرس
الا حبذا ما استثار الهوى ... بتلك الكنائس من كُنُس
ترى كل فاتنة وجهها ... مرّى يشمس الضحى مكتس
تكاد التماثيل من حسنه ... تنور بساطة الانفس
فرنجية ساكن عقدها ... وزنارها قلق المجلس
اذا قبلت صورة اقبلت ... عليها بناظرها الاشوس
فيا ليتني عندها دمية ... تراني ولا ريب في ملمسي
فأقسم لو انني استطيع ... تحولت صورة من جرجس (٧١)

ومن ذلك في اشمونيث وهي للفريرية والنصارى :

لو كنت ثالثنا باشمونيثا ... حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منا اعيناً طمّاحة ... تستحسن التذكير والتأنيثا
... محض يجاذب ودفه ... فكأنه احتلب الرمال الميثا

ومهفهف لعب الصبى بعوامه حتى توهمت انتسابه حبشا
لما سألت غزالة عن دينه ملأ الزجاجة ثم جاء حبشا
قلت اسقني من ذيك ان رضابه قد رد اطيب ما حملت خبيثا
قال اعتبر قرع المزاج نسيبه ما عند ثغري نهم الثالوثا
وبدا يناظرني به عن دينه فقطعت ليلا بالجدال مكيثا
فحكى عيسى بالصلاة واصطفى لوطا وتذكرنا المدامة شيثا
والبدر مبتسم كوجه خريدة قرنت به فرعا عليه اثيثا
يا ليلة افردت طرفي فجرها عنقا يكون به المطيّ حديثا (٧٢)

ومن ذلك في دير سمعان وهو على فرسخين من انطاكية لهم به اجتماع في عيد الصليب :

يا هل سمعتم بدير سمعان وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله ام منبت من منابت البان
في كل غصن تفاحتا خجل تلفاك من مثله ببستان
من ذات بشر يلوح في بشر وذات جان علا على جان
يرمي فيصمي عن غير فاطنة ما كل قوس ترمي بزنان
في ليلة لم تزل ... حرفي تلفح نيرانهم بنيران
كأن جرام من توقدها بات زعيماً بحرب كيران
نار ونور كأن انسها في الليل ما آنس آل عمران (٧٣)
حتى اخجل الصبح في كتائبها عن كل نشوانة ونشوان
تسجد للشمس وهي مرضة في الافق عنه بوجه غيران
واصرفوا والفؤاد اقسدة مع كل نصرانة ونصران
يا حسن عيد الصليب لو ان كان الدهر فيهم اعياد صلبان

ومن ذلك في جارية من مولدات انطاكية اسمها ماريا من احسن الناس خلقاً وخُلقاً تغني بالدف ومن اصواتها التي تغايظ بها النصارى وتستميل قلوب المسلمين :

علقت بحبل من حبال محمد امنت به من طارق الحدثان

تعني النبي صلى الله عليه وسلم

ألا يا غزال الشرع هل انت منشدي علقت بحبل من حبال محمد (٧٤)
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلة تعود ولو عادت عنيما بلا غد
فالفاك فيها ماري الكأس حاديا وحبك من ساع بها ومنرّد
الا حبذا عاري المحاسن عاطل حلّى بانواع الملاحة مرتد
اذا ما الاماني ما طلتني بوعدها ذكرت له وصلا على غير موعد

وقد نام عنا الدهر حتى كأنه عداة التقينا بات شارب مرقد
فيا حسن ذاك الوجه اذ ريع روعة تعوّذه منها بتصليبة اليد
وعهدي بماريا يسقى الله عهدها بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضة تنقط خديه العيون بمسجد
وقد غلب المصباح منها على الدجى سنا قمر في جنح ليل مجسّد
وكنت اذا عفت الزجاجة موردًا سقتني رضابًا في اناء مورد
فيا لي من وجه كقنديل فضة عليه من الصدغين محراب مسجد (٧٥)
لقد اسرتني حيث لا ابغي الفدا فقل في اسير لا يسرّ بفتد

ومن ذلك فيها :

اذا ما زرت ماريا فما مدى وما رَيا
فتاة كقضيب البان يثنيها الصبى طيًا
تلوّى كالمواعيد اطالت عمرها ليًا
لها وجه مسيحيّ ترى الميت به حيًا
اذا ما قابلته الشمس لم تبصر له فيًا
فيا احسن من اعرض ادلالًا ومن حيًا
اتنسين وحبك فتى قلت له هيًا
فلو يظر وسم الحبّ ابصرت له كيًا
هوى الّا يكن رشدا فما احسنه غيًا (٧٦)

ومن ذلك في خمارة بجسر الحديد على باب انطاكية :

ان كان لا بد من السكر فمن يدي خمارة الجسر
خمارة تطلع من نحرها جمّارة بيضاء من غمر
تمشي فتمشي الراح في راحها تمديمنا الشمس الى البدر
حتى اذا دارت على شربها الحاظها اغنت عن الخمر
ما زرتها الا وباتت يدي اولى من الزنار بالخصر
وبت اسقى من جنى ريقها كأسًا من الشهد الى الشهر

ومن ذلك :

واحيائي وقد مرّت بهم من مسيحية دعتني بعمي
ابن عصر الشباب ايام اد عوها صبيًا بجدتي وباسي (٧٧)

ومن ذلك :

عرّجا بالاثارب كي اقضّي مآربي
واسرقا نوم مقلتي من جفون الكواعب
واعجبا من ضلالتي بين عين وحاجب

رب كأس حسوت من ثغر الجنا
سكرتني ومتُّ ثانيةً على الفراش

ومن ذلك وقد اجتاز بعزاز من ضواحي حلب وهي مع الافرنج :

اين عزّي من روحتي عزاز وجوازي على الظباء الجوازي
والبوافير ساحبات الذفا فير علينا كالريط المجتاز
بعيون كالمرهفات المواضي وقدود مثل القنا الهزاز (٧٨)
وغور تقاسمت ثغور ريقها ذوب سكر الامواز
ووجوه لها نبوة حسن غير ان الإعجاز في الأعجاز
كل خمصانة ثنت طرف الز نار من نكبة على مواز
ذات خصر يكاد يخفى على الفا رس منه مواقع المهاز
لاحظتني فانقضّ منها على قلبيَ طرف له قوادم باز
وسبتني لها ذوائب شعر عقدتها ناجاً على ابرواز
من معيني على بنات بني الاصفر غزوًا فانني اليوم غاز

ومن ذلك :

احبن سالي في السلوّ سبيل توكل لي بالاختبرين(١ وكيل
اغنّ ضعيف الحصربين جفونه من اللحظ ماضي السفرتين كليل
له خيمة بالتلّ غير وخيمة يفيء لها ظل عليه ظليل (٧٩)
تدافع عنه غيرة الشمس بالضحى والظبي في ظل الكناس مقيل
يقولون لي نوم الليل مشرّد فلم نال منه الطرف وهو طليل
يسائلني ما حاجتي وهو عالم ورب جواب ما اليه سبيل
واطمع منه في الوصال ودونه دلال على الهجران منه دليل
متى سمحت عين لعاذل بدية فلا فانني من ذا الجمال جميل

ومن ذلك في مولّد من مولدي الافرنج ابصره بياعو من بلاد الشمال :

وشحنة كالهلال في ياعو عيناه جند له واتباع
والٍ والبانيا ولايته ومُقطَع والقلوب اقطاع
اذا بدا اذعنت له حدق وان شدا ملكته اسماع
يجسّ اوتار عوده بيدٍ ابقاعها بالنفوس ايقاع (٨٠)

قال وقد اقترح عليه الوزن والمعنى :

لا تخدعنّ فا الحسام المرهف الا الذي يملوه جفن اوطف
واذا رأيت الطرف يسل في الحشا عمل الاسنّة فالزوام مثقف
ويح المحب اما يخالس نظرة الا هفا بالقلب ظبي اهيف

١) الاختبرين من قرى حلب

بالله يا نفحات انفاس الصبى ما بال غصن البان لا يتعطف
يا سُكري وجدًا بكاس جفونه قل لي املك لواحظ ام قرقف
بادر جمالك بالجميل قربه ذوت الملاحة او أبلّ الموقف
واسبق عذارك باعتذارك قبل ان يأتي بمزل هواك منه ملطف

وقال ايضاً :

يا عارضًا نفسه وعارضه يضرب دون الوصال بالحُجُب
ابنت منه لسلوتي سببًا يا هاجري قبل ذا بلا سبب (٨١)
فالقَ به قطع كل ذي صلة هذا كسوف بمقدة الذنب

وقال :

اودعتكم قلبي وودّعتكم لا آمن البعد على قلبي
وعدت ادعو الله في قربكم وقد أجيبت دعوة الغرب
فاعتبروا مشتاقكم في الهوى هل زلّ عنه خاتم الحب

وقال ايضاً :

من لقلب يألف الفكرا ولعين ما تذوق كرى
ولصبّ بالغرام قضى ما قضى من وصلكم وطرا
ويح قلبي من هوى ثمر انكرت عيني له القمرا
حالفت احفانه سنة قتلت عشاقه سهرا
يا خليلي اعذرا دَنِفًا يصطفي في الحب من عذرا (٨٢)
وذراني من ملامكما ان لي في سلوتي نظرا

وقال ايضاً :

كلما خالسته نظري رد جفنيه على حَوَر
وابلاني من مفوّقة ليس ترمي الغاب عن وتر
كيف لا تصمي واسهمها واقمات من يد القدر
بأبي من في محاسنه ثمر في هالة القمر
يا عديل النفس محتملًا وثقيل الطرف في الخصر
انت من هذا المحل وذا ابدًا في وحلتي ثمر

وقال ايضاً :

ويلاه من قلبه صخرة في زند قلبي ابدًا قادحة
كأنما كأس جنى ريقه بعد الكرى نافجة نافحة (٨٣)
نافه هل في خده حمرة ام خمرة ام جمرة لافحة
لو لم تكن مقلته في الحشا جارحة ما سميت جارحة
تمضي صلاتي كلها باسمه فلا تسل عن سورة الفاتحة (٨٤)

هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره